(المحاضرة السادسة)

الاستعمار الفرنسي للمغرب الغربي ومقاومة الشعب العربي

أ. الجزائر:

كان للاستعمار الفرنسي دوافع كثيرة لاحتلال الجزائر في عام ١٨٣٠ فموقعها الجغرافي والطبيعة السوقية **(الاستراتيجية)** لها يهيئ للأسطول الفرنسي قواعد صالحة للسيطرة على البحر المتوسط، كما انها بلاد واسعة تكثر فيها الثروات على مختلف انواعها يضاف الى ذلك عوامل تتعلق بالوضع الداخلي لفرنسا ذاتها خاصة بعد ان فقدت إمبراطوريتها الاستعمارية خلال حروب الثورة الفرنسية ونابليون وتنازلها لبريطانيا عن بعض المستعمرات فأرادت ان تبحث لها عن نصر خارجي يبعد انظار الشعب الفرنسي عن المشاكل التي كانت تواجهها في الداخل. اما حادث المروحة المعروف الذي وقع في يوم ٢٩ نيسان ١٨٢٧ فهو ذريعة للاحتلال وخلاصته ان فرنسا كانت مدينة للجزائر بمبلغ من المال ثمنا لقمح اشترته منها، الا انها تقاعست عن دفعه عدة سنين فحدث مشادة بين حسين حاكم الجزائر والقنصل الفرنسي **(دافال)** ومن خلالها اشار الداي الى القنصل بالخروج مؤشرا بمروحة كانت بيده فمست المروحة وجه القنصل.

بدأ الانزال الفرنسي في حزيران سنة ١٨٣٠ في خليج يبعد ٢٥ كيلو مترا عن مدينة الجزائر، وتصدى شعبنا العربي في الجزائر للغزاة، وخاض ضدهم سلسلة من المعارك، ولفقدان التكافؤ بين القوتين الفرنسية والجزائرية من النواحي الفنية والتنظيمية والادارية ولسقوط برج مولاي الحسن، وهو مركز الدفاع عن مدينة الجزائر بيد الفرنسيين، فقد اضطر الداي الى الاستسلام ليرحل منفيا الى نابولي.

لم يستطع الفرنسيون التوغل داخل البلاد فعندما حاولوا احتلال مدينة بليدة فاجأتهم قبائل المتيجة بحرب الانصار التي اشتهرت بها المقاومة العربية في الجزائر فتراجعوا الى العاصمة.

مرت حركة المقاومة العربية في الجزائر بمراحل عديدة نلخصها في:

١. **الفترة المبكرة:** وهي الفترة الواقعة بين سنتي ١٨٣٠ و١٨٣٢ وقد حاولت سلطات الغزو البحث عن بعض رؤساء القبائل العربية ليعترفوا لها بالسيادة في المناطق الداخلية ولكنها فشلت وواجهت مقاومة شديدة وتصميم كبير على طرد الغزاة من الارض الجزائرية.

٢. **الفترة الثانية:** وهي التي برزت فيها شخصية الامير **(عبد القادر الجزائري)** الذي قاد حركة المقاومة حتى سنة ١٨٤٧ وعبد القادر ينحدر من قبيلة بني هاشم العربية النازلة قرب مدينة معسكر عاصمة وهران القديمة. وقد بايعته القبائل العربية في وهران اميرا عليها في صيف ضلعي ٨٣٢ وكان عمره اربع وعشرين سنة.

وقد مر تاريخ عبد القادر بمرحلتين متميزتين:

الاولى: تبدأ من مبايعته وتنتهي في سنة ١٨٣٩حين بلغت ثورته ذروتها بعد ان حرر ثلثي الجزائر تقريبا.

الثانية: تبدا من سنة ١٨٣٢ الى ١٨٤٧ حينما اضطر الى تسليم نفسه من قبل فرنسا.

اعتمد الامير الجزائري على عنصر المباغتة والسرعة في ضرب مواقع الغزاة، وقد اتخذ من مدينة معسكر عاصمة له نظم فيها الادارة وانشا بها بعض المصانع الحربية للسلاح والذخيرة وكون جيشا منظما لمقاتلة الغزاة والتفت حوله القبائل واستطاع ان يحرر ميناء ارزو شمال شرق وهران وقد ساعده ذلك في استيراد السلاح وايصال صوته الى الدولة الاجنبية.

لجا الامير عبد القادر في بعض الاحيان الى مهادنة الفرنسيين محاولة منه لكسب الوقت واستكمال قوته وتجهيز انصاره بالسلاح ففي ٢٨ شباط ١٨٣٤ وقع مع الفرنسيين اتفاقا لوقف القتال. وفتح المناطق المحررة للتجارة الفرنسية والمسافرين بشرط حصولهم على موافقة من الامير عبد القادر.

ولكن هذا الاتفاق سرعان ما اصبح حبرا على ورق. وعندما هاجم الفرنسيون المنطقة الداخلية التي كان يسيطر عليها الامير عبدالقادر في وادي المقطع. عندئذ تحرك الامير وتمكن من تحرير اقليم وهران بأجمعه ماعدا المركزين الفرنسيين على الساحل وهما وهران ومستغانم.

واجه الغزاة في هذه المرحلة مقاومة عنيفة في جبهتين

الاولى: جبهة وهران التي قادها الامير عبدالقادر **والثانية:** جبهة قسنطينة التي تزعمها احمد بك حاكم قسنطينة الذي ستطاع الاحتفاظ باستقلال الاقليم الشرقي طوال هذه الفترة. لذلك حاول ا لفرنسيون احتلال مدينة عسكر الا انهم فشلوا في ذلك ففكروا عندئذ في مهادنة الامير عبد القادر مرة اخرى. وقد وافق على ذلك رغبة منه في التفرغ لبسط سيطرته على الجزء الاكبر من الجزائر حتى الصحراء الكبرى، وقد انتهت المفاوضات بتوقيع **(معاهدة تافنا)** سنة ١٨٣٧ وبها تركت مدن الجزائر ووهران ومدن ساحلية اخرى بينما ظلت بقية الاقاليم بيد الامير عبد القادر وتمثل ثلثي اراضي الجزائر تقريبا.

استفاد الامير عبد القادر من تلك المعاهدة في تثبيت حكومته وتوحيد قوى الشعب العربي في الجزائر وتعبئته ضد الغزاة استعدادا لخوض الجولة الجديدة وفي الوقت نفسه فان الفرنسيون تفرغوا لاحتلال مدينة قسنطينة في الاول من تشرين الثاني سنة ١٨٣٧ وقد تحقق لهم ذلك بعد مقاومة عنيفة ثم تفرغ الفرنسيون بعد ذلك لمواجهة الامير عبد القادر.

ويعد توسع الفرنسيون في المنطقة ا ل محيطة للجزائر نقضا لاتفاقهم مع الامير عبد القادر الذي قرر بعد تموز سنة ١٨٣٩ اعلان الحرب الشاملة وفي نيسان ١٨٤٠ حرر مدينتي مليانه والمدية وبدأت حرب مدمرة شنها الجنرال بوجو الذي لجأ الى النعب والسلب والقتل كوسيلة مشروعة للحرب على الجزائر.

وضع الجنرال بوجو لنفسه شعارا يتلخص بإخضاع العرب وتثبيت العلم الفرنسي في كل بلدان المغرب العربي وكان يدعو الى تثبيت سياسة الاستيطان في الجزائر.

لقد سقطت معظم المدن والمراكز التي كانت بيد الامير عبد القادر واخط ينتقل بسرعة كبيرة واصبح هم المستعمرين بعد وصول امدادات عسكرية كبيرة لهم في سنة ١٨٤٢ العثور على مركز المقاومة. وفي ايار ١٨٤٣ استطاع الفرنسيون معرفة هذا المركز وذلك قرب واحة بوغار جنوبي وهران ومان يضم اكثر من مئتي الف مقاتل وبعد سلسلة من المعارك كان اخرها معركة سيدي يحيى اضطر الامير الى الانسحاب في تشرين الثاني سنة ١٨٤٣ الى داخل اراضي مراكش ومن هناك اخذ يوجه المعارك ضد المستعمرين الفرنسيين.

لقد عمد الغزاة الى مبدا محاربة الجزائريين في مصالحهم الاقتصادية وممتلكاتهم فاخذوا يخربون منازلهم ويستولون على مواشيهم وغلالهم حتى ساد الخراب في المناطق التي كان يمر بها الفرنسيون.

في سنة ١٨٤٥ عاد الامير الى الجزائر وانتشرت الثورة مرة اخرى في جميع مناطق وهران الجنوبية فاعلن بو معزة زعيم وادي الشليف تأييده للأمير وفي ربيع ١٨٤٦ قضى الفرنسيون على مقاومة بومعزة وعلى نائبه في اقليم قسنطينة مصطفى بن سالم فانسحب الامير ثانية الى مراكش ولكن سلطان مراكش تردد في قبوله وبدأ يعمل على طرده بالقوة حتى اضطره الى تسليم نفسه للفرنسيين سنة ١٨٤٧ فجمل اسيرا الى فرنسا وبقى هناك ثم رحل الى دمشق وتوفي فيها سنة ١٨٨٣.

فترة ما بعد عبد القادر الجزائري

لم يستسلم الشعب الجزائري نهائيا بعد سقوط الامير عبد القادر اذ ظهرت مراكز جديدة للمقاومة ومن ابرزها التي قام بها الجزائريون حين رفض جماعة من المجندين الجزائريين التوجه الى المراكب التي كانت تريد نقلهم الى فرنسا في مطلع ١٨٧١ فظهرت دلائل الثورة في موانئ قسنطينة الشرقية مثل بجاية وعنابة. وامتدت بعد ذلك الى داخل الاقليم.

تزعم هذه الثورة محمد بن احمد مقراني قائد بلدة ميجاني في اقليم قسنطينة فقد حرر الجزائريون المنطقة الممتدة حتى وادي المتيجة شرقي مدينة الجزائر من المراكز الفرنسية لكن فرنسا استخدمت القسوة في قمع الثورة فسقط محمد مقراني شهيدا في معركة وادي سقله وخلفه اخوه ابو مرزاق الذي اضطر لنقل مراكز القتال الى الواحات الجنوبية بعد ان اشتد الضغط الفرنسي عليه، ولكن سرعان ما واجه بو مرزاق التفات القوات الفرنسية خلف خطوط دفاعه في واحتي ورقلة وتوكرت فاضطر الى التسليم في مطلع سنة ١٨٧٢.

تميزت الفترة الاي اعقبت ثورة ١٨٧١ بمحاولات المستعمرين الفرنسيين بتشجيع الهجرة الجماعية الفرنسية الى الجزائر وذلك لتغيير التوازن البشري لصالح المستوطنين الذين

اخذوا يحصلون على الاراضي الخصبة، وتعد الفترة بين ١٨٧١و ١٨٨١ من انشط فترات الهجر ة كما اتبعت الادارة الفرنسية سياسة الاندماج اي تطبيق النظم الفرنسية في الجزائر، فاصدر مرسوم سنة ١٨٨١ بالحاق الجزائر إداريا بفرنسا. وبعد فشل التوغل الفرنسي في اراضي الجزائر بسبب قوة المقاومة وخاصة منطقة الجنوب الغربي الصحراوية فقد كانت المقاومة الباسلة تتخذ من الواحات المراكشية امثال توكلت وفجيج قواعد لها وكثيرا ما حاول المستعمرين التوغل ومقاومة القبائل الا انهم كانوا يضطرون الى التراجع ومن ابرز القبائل المقاومة كانت قبائل ولد سيدي الشيخ جنوب وهران. تنامى الوعي بين الجزائريين قبيل الحرب العالمية الاولى واثنائها وتعمقت كذلك روح النضال بين الشعب الجزائري فصمم على الاستقلال وتحرير اراضيه من المستعمرين الفرنسيين.

ب- احتلال مراكش (المغرب) ١٩١٢

سعت فرنسا لإكمال سيطرتها على المغرب العربي وتحقيق مطامعها الاستعمارية فيه، ومع ان تاريخ التغلغل الفرنسي الاستعماري في شؤون مراكش يعود الى ما قبل القرن التاسع عشر الا ان هذا التدخل اتخذ صفة استعمارية سافرة عقب الغزو الفرنسي للجزائر وتونس.

لقد احس السلطان عبد الرحمن بن هشام سلطان مراكش (١٨٢٢-١٨٥٩) بالخطر الفرنسي، لذلك قرر ان يمد عبد القادر الجزائري بالأموال والسلاح.

فاحتج الفرنسيون حتى بلغت احتجاجات القنصل الفرنسي في طنجة ذروتها عندما لجأ عبد القادر للأراضي المراكشية لذلك استعد الفرنسيون لمهاجمة مراكش وحدث الصدام في معركة **(وادي اسلي)** في ١٤اب ١٨٤٤ واسفر الصدَام على توقيع اتفاقية تشرين الثاني ١٨٤٤ والتي نصت على تسريح الجيش المراكشي في منطقة الحدود واعلان خروج عبد القادر عن القانون.

وكما حدث في تونس اتخذ الف نسيون مشكلة الحدود حجة للتدخل في شؤون مراكش ففرضت فرنسا على سلطان مراكش الحسن بن محمد ١٨٧٧ بعثة عسكرية فرنسية بحجة تدريب الجيش المراكشي لكن السلطان حاول التقرب من بريطانيا معتقدا ان التقرب سيحول دون الاطماع الفرنسية على بلاده وخاصة ان بريطانيا كانت معارضة للامتداد الفرنسي الى مراكش كما وقفت بوجه المصالح الاسبانية خوفا من تحكم اسبانيا في مضيق جبل طارق.

تولى السلطان مولاي **(عبد العزيز بن الحسن)** السلطة الفعلية على مراكش سنة ١٩٠٠ وكان صغير السن وقليل التجربة فحاول بعض المحاولات لتحديث مراكش لكن بسبب قلة خبرته ادت اقتران هذه المحاولات بتغلغل النفوذ الغربي وفتحت الباب امام المغامرين من جميع الجنسيات الاوربية القدوم الى البلاد وتدبير المؤامرات وجمع الثروات بأقصر وقت ممكن حيث اغروا السلطان بمستحدثات اللهو والمظاهر البراقة من المدنية الغربية مما ادى الى اسرافه الشديد ووقوعه في حبائل القروض الاجنبية.

قد شجعت الحكومة الفرنسية اصحاب مصارفها على اقراض المغرب وفي سنة ١٩٠٤ بلغت قيمة القروض الفرنسية لمراكش قرابة **(٧٠ مليون)** فرنك فرنسي فاستغلت فرنسا ذلك واعدت العدة لاحتلال مراكش لحماية مصالحها الاقتصادية والاستعمارية ومهدت بذلك بحل مشاكلها مع بريطانيا واسبانيا فقد اعترفت للأولى باحتلالها لمصر وللثانية باحتلالها لمنطقة الريف المراكشي وبعد اجراء هذه التسويات الاستعمارية اخذت فرنسا تضغط على مراكش مستغلة تردي الاوضاع المالية فعرضت على السلطان عبد الحفيظ ابن الحسن الذي تولى الحكم سنة ١٩٠٨ قروضا جديدة ولكن بشروط قاسية في هذه المرة مثل وضع ايرادات الجمارك التي تجمع من جميع موانئ المغرب ورسوم الشاي ٥٠% من الضرائب العقارية بالمدن تحت تصرفها لتغطية هذه الديون. وخلال شهر نيسان وايار ١٩١١ احتلت القوات الفرنسية مدينتي الرباط وفاس وفي ايلول حدث ما سمي بأزمة اغادير

حين اعترضت المانيا على دخول سفن حربية فرنسية الى هذا الميناء خاصة بعد ان اصبحت لها مصالح اقتصادية في مراكش اثر زيارة وليم الثاني امبراطور المانيا لمراكش سنة ١٩٠٥ لكن فرنسا ساومت المانيا فتنازلت لها عن المنطقة الساحلية في الكونغو ارضاء لها الامر الذي مكن فرنسا من اعلان حمايتها على مراكش في ٣٠ اذار ١٩١٢ وفرضها معاهدة مهينة على السلطان عبد الحفيظ تضمنت موافقته على احتلال فرنسا لأي جزء من البلاد تراه ضروريا للمحافظة على سلامة المصالح الاقتصادية الفرنسية.

لم يقف الشعب دون مقاومة ومفاح لدخول فرنسا وعلان حمايتها واستمر بالمواجهة لأحل الحرية والاستقلال الذي حال دون اخضاع البلاد لفرنسا الا بعد مضي عشرين عاما ومن اشهر الثورات التي حدثت ضد الفرنسيين هي ثورة فاس في نيسان ١٩١٢ التي قمعت بقسوة شديدة وعندما وصلت انباء هذه الثورة لمناطق اخرى احتشد الوف من المقتلين في منطقة جبال الاطلس لضرب حصار شديد حول فاس لا ان المحتلين تمكنوا من فك الحصار في حزيران ١٩١٢ بعدها تركزت المقاومة في منطقتين الاولى جبال الاطلس الاوسط والثانية في الجنوب حيث حمل **(هبة الله بن ماء العينين)** دعوة ابيه في النضال والتف حوله اهل السوس وفي ٥ اب ١٩١٢ حرر هبة الله مدينة مراكش عاصمة الجنوب وفي سنة ١٩١٣ حشد المحتلون قوات كبيرة استطاعت ان تجبر هبة الله على الانسحاب الى موريتانيا ولم يتم للفرنسيين احتلال منطقة السوس احتلال كاملا الا في سنة ١٩٣٤.

من الجدير بالذكر ان نشير الى حركة المقاومة في مراكش كانت تشوبها بعض نقاط الضعف منها عدم التنسيق بين اطرافها المتعددة واتصاف كثير منها بالنزعة القبلية ووقوف بعض القيادات الاقطاعية في الجنوب من الاطلس الكبير امثال **الجلاوي والجندافي** مع المحتلين. ومن هنا كانت تختلف هذه الحركات عن حركة المقاومة الكبرى التي تزعمها المناضل عبد الكريم الخطابي من ١٩٢١حتى ١٩٢٦ والتي بلغت اهدافها.

لقد استغلت فرنسا بلدان المغرب العربي الى ابعد حدود الاستغلال فسخرت الموارد الاقتصادية في صالحها دون الاهتمام بمصالح السكان المغربي كما اقدمت على انتزاع الاراضي الزراعية الخصبة من اهلها ووزعتها على المستوطنين الفرنسيين وعملت على نشر الثقافة واللغة الفرنسية متجاهلة ثقافة البلاد ولغتها. مستهدفة الاجهاز على الشخصية القومية المتميزة، لكن الشعب لم يقف مكتوف الايدي تجاه تلك السياسة الاستعمارية واتضح ذلك في الثورات العديدة التي نشبت.

٢-تغلغل النفوذ البريطاني في الخليج العربي والجنوب العربي والعراق ومقاومة الشعب العربي للاستعمار البريطاني لمصر سنه ١٨٨٢ والسودان ١٨٩٨:

أ- تغلغل النفوذ البريطاني في الخليج العربي والجنوب العربي والعراق ومقاومة الشعب له:

يرجع تاريخ التغلغل البريطاني في الخليج العربي وجنوب شبه الجزيرة العربية الى القرن السابع عشر الميلادي. ففي بداية القرن المذكور اسست في لندن شركة الهند الشرقية البريطانية لتكن اداة لنشر السياسة الاستعمارية الإنجليزية في حوض المحيط الهندي، وللمتاجرة مع الهند والمناطق المجاورة لها ومنها الخليج العربي.

استقر الانجليز بالتعاون مع بلاد فارس في ميناء بندر عباس وصار الميناء مركزا رئيسا لنشاطهم السياسي والتجاري في الخليج العربي لمدة تزيد عن مائة وخمسين عاما. ثم فقد بندر عباس اهميته نتيجة الفوضى التي سادت المنطقة في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي.

واصبحت البصرة المقر الرئيس للتجارة البريطانية في الخليج العربي وفي سنه ١٧٦٣ انتقل البريطانيون الى بوشهر. لقد أدركت بريطانيا عندما تعرض نفوذها في شبه القارة الهندية للخطر بسبب حروب الثورة الفرنسية وغزو نابليون لمصر وتهديده طرق المواصلات البريطانية للشرق بأهمية الخليج العربي السوقية **(الاستراتيجية)** ورأت فيه منذ ذلك الوقت طريقا مهما لسلامة في الهند.

فأخذت تحاول بسط نفوذها السياسي عليه وكان طبيعيا ان يتسلل الاستعمار البريطاني الى العراق بحكم موقعه على طريق الهند ونستطيع تحديد اهم المصالح البريطانية في العراق بما يلي:

اولا: المصالح الاقتصادية:

يرجع نشؤها الى سنه ١٦٣٥ عندما وصلت اول سفينة بريطانية الى ميناء البصرة وفي سنه ١٧٣٣ فتح البريطانيون مقيميه دائمة لهم في المدينة المذكورة لتشرف على مصالحهم فيها. وقد ادى قيام الثورة الصناعية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الى زيادة الصادرات البريطانية زيادة كبيره مما دعا للبحث عن اسواق لتصريفها زيادة على ذلك فان فتح قناة السويس سنة ١٨٦٩ ادى الى تقصير طرق المواصلات بين الشرق والغرب وتقليل كلفة النقل البحري واختصار المدة اللازمة لوصول البضائع الى الاسواق.

وكان العراق الى جانب كونه سوق للبضائع البريطانية طريقا تمر به البضائع الى بلاد فارس وقد اسست في العراق فروع لعدة مصارف بريطانية لتسهيل المتاجرة واستثمار رؤوس الاموال البريطانية، وقد ساهمت تلك المصارف في تسهيل التعامل المالي. فكان في العراق فرع للمصرف العثماني برؤوس اموال بريطانية وفرنسية والمصرف الشرقي وراس ماله من أسهم بريطانيا الا ان ادارته المركزية في لندن وله فرع في بغداد والموصل.

ولاكتشاف منابع غزيرة من النفط في ولايتي الموصل وبغداد فقط نشطت الدول الاستعمارية وخاصة بريطانيا والمانيا للحصول على امتيازات من الحكومة العثمانية لهم تخولها من استخراجه وتسويقه وبعد صراعات دولية استمرت زمنا طويلا اتفق البريطانيون والالمان والهولنديون على تأسيس شركة النفط التركية التي حصلت على امتيازات التنقيب عن النفط من الحكومة العثمانية الا ان اندلاع الحرب العالمية الاولى حال دون ذلك.